ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """""دار الطالب """"بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

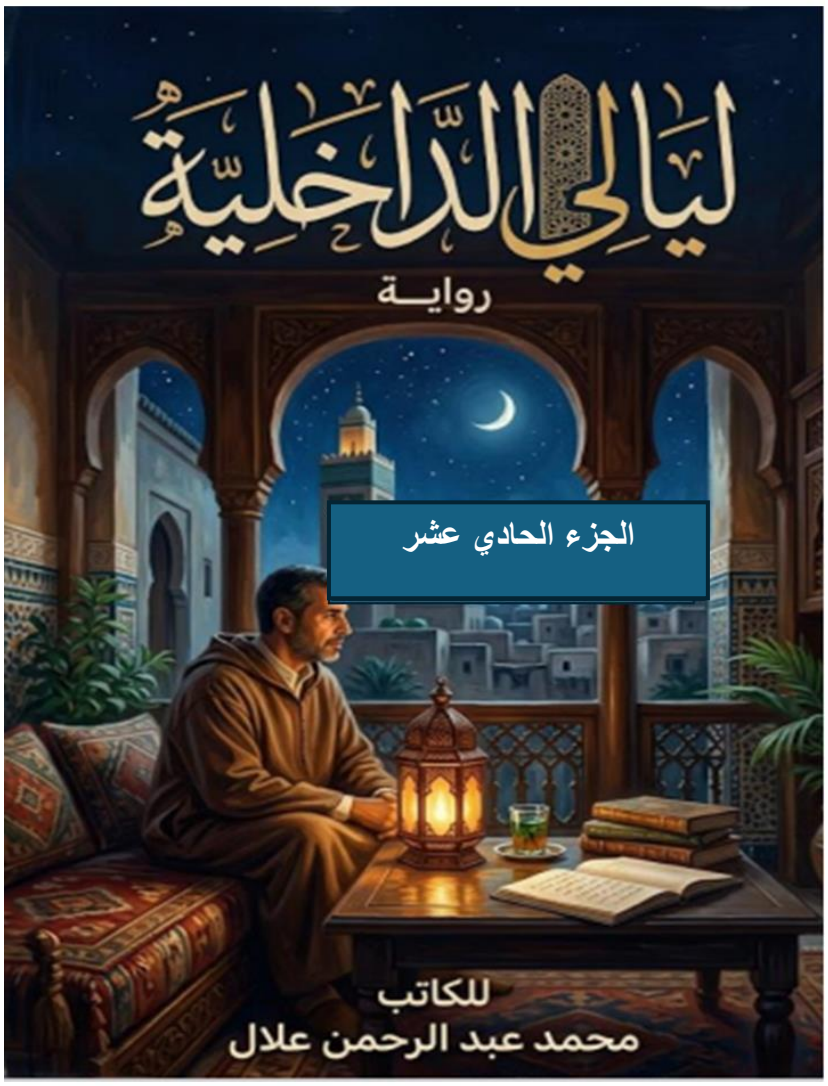

في ذلك اليوم وهو يقف متكئا على جدار قبالة السينما ،ينتظر الثالثة مساء حيث موعد فيلم ياباني من نوع الكاراتيه ، تواجد هناك شبان كثر؛ هم أيضا كانوا منتظرين شغوفين لما سيأتي به العرض .فجأة ،ومن غير سابق إنذار ،اهتز المكان على صوت مرعب كأنه دوي رعد قوي فوق سماء المدينة .هم الجميع بالفرار خوفا.اختلط الحابل بالنابل على ذلك الشارع .هناك في السماء ،كانت طائرة سوداء صغيرة الحجم ،ذات منقار طويل حاد جدا كما بدا من بعيد

تمر بسرعة خارقة، مخلفة فزعا في شديدا نفوس سكان فجيج عامة. كانت طائرة حربية جزائرية تجاوزت الحدود الوهمية وقد بدأت اعتداءاتها على المدينة .عاد الهدوء وعاد الناس الى مواقعهم بعد فترة من الوقت .في قاعة السينما ،لم يخل الحديث همسا عما جرى .كان تيمح وسط القاعة يفكر ان عاودت الهجوم وقصفت ومات هناك دون ان يودع اسرته .أضاع على نفسه مقاطع هامة من الفيلم وهو خائف يترقب .لم يكن من حديث في الداخلية ليلتها سوى ما تركته الطائرة من

أثر نفسي على الطلاب ."أخبرنا أحد الطلاب القدامى""""يقول تيمح """"أخبرنا أن الجزائر ستهجم على المدينة .ستلقي القنابل وسيموت الكثير من الناس بمن فيهم نزلاء الداخلية ،ثم ستسيطر على كل شيء "" زاد ذلك من خوف الطلاب وارتباكهم حتى انصرفوا عن دروسهم لأيام .ظلوا يترقبون في كل ساعة ما الخطوة التالية لهذه الطائرات .يتساءلون ويسألون العارفين بشؤون السياسة والحرب .مضت أيام مريرة على ذلك الحدث ،وها هي جماعات من المواطنين المغاربة يفدون عبر الحدود من الجزائر ."""أخبرنا سي عزوز """"يقول تيمح """"أخبرنا أن دار الطالب ستستقبل الكثير من المواطنين المغاربة المطرودين قسرا ،وأن علينا أن نقتسم معهم كل شيء ،وأن نواسيهم ونعاملهم أحسن التعامل ."""نشطت الحركة من جديد في قيادة فجيج استعدادا للحدث الطارئ. شرعت السلطات تضع الخطط ليتوفر كل ما يلزم لإيواء هؤلاء الأبرياء .نساء ورجال وأطفال وشيوخ رآهم تيمح يدخلون دار الطالب .كان منهم

مختل عقليا .تعلق تيمح بالكثير من هؤلاء .صار يجالسهم ،يتبادل معهم أطراف الحديث ليل نهار .يتعرف إليهم والى محنتهم .ظل يستمع اليهم انصاتا .أكل معهم في صحن واحد اقتسموا فيه الحساء والخبز والعدس والفاصولياء .جمعه معهم سمر في حوش الدار، يستمع االى حكاياتهم. حكايات يوم العيد ،حكايات عسكر الجزائر على الحدود ،حكايات الشعب الجزائري الذي ظل متفرجا بل ويزكي ما يحدث أمام عينيه .حكايات ما وفرته القوات المسلحة الملكية حتى تمحو عنهم همَّ وغمَّ ما لقوه من عذاب ومعاناة على الطريق وفي مدن الجزائر .في الثانوية ،حكى له الأصحاب عن استقبال أهل فجيج لهؤلاء المساكين في دورهم .يقتسمون معهم كل شيء رفعا لمعنوياتهم. مثلت صورة ما عاناه أهله في قرية ""ايش"" وستينيات القرن العشرين في ذلك المشهد المهيب أما عينيه . صور حصار قريته بلا رحمة الا ان يقولوا نحن مغاربة .

في أول وجبة غذاء مع المغاربة المهجرين ظلما من الجزائر، غصت قاعة الإطعام بهم .أصبحت الحركة في الغرف الأخرى وفي الساحة غير منقطعة .وهم يتناولن وجبة الغذاء ،تعرف تيمح الى شاب قدم نفسه باسم ""موحميداتي"""كان طويل القامة ،حسن الوجه .فارع المنكبين .عليه سمرة زادته جمالا .ينسدل شعره أملس ناعما على اذنيه حتى أخفاهما .يلبس معطفا يفتحه من الأمام على صدر كلوح صلب منبسط .ظهرت عليه ابتسامة على اسنان ابيضت حتى صارت ثلجا ناصعا .رآه في قاعة الإطعام يساعد في توزيع الصحون .في ملئها طعاما .لم يجلس كما الآخرين يفعلون .لم يتناول الطعام كغيره من الحاضرين .كان تيمح يتأمله مليا ،تدهشه شخصيته القادمة من هناك ،من بلاد الأعداء .كان يتصرف وكأنه ابن الدار تماما .كأنه طالب من الطلاب فيها لمواسم وعقود.في ذلك اليوم ،لم يأكل الطلاب طعامهم فرادى على صحون مفردة ،بل وضع الطعام في صحون كبيرة كانت ملئ حتى التخمة .بعضهم كان

يستعمل الملعقة حتى يحصل على قدر كبير من الطعام .ظل محمداتي لصيقا به .يسأله عن اسمه ومدينته كلما مر بالصف الذي يجلس به .كان ذلك تصرفا غريبا .لم يفهمه تيمح آنذاك .كان طفلا لا يزال .قليل الخبرة .يجهل كل شيء عن معنى تلك الصداقة التي طلبها موحميداتي .يجهل لماذا اختاره هو بالضبط .كان ذلك يزعجه أحيانا .كان فارق السن بينهما كبيرا .لم تجمعهما مدينة واحدة .ما كانت له سابق لقاء به. موحميداتي ولد في بلاد أخرى من أبوين مغربيين وعاش بها طفولته وجزءا من شبابه قبل أن يحدث ما حدث.

حين جن الليل وأرخى سدوله ،تحلق الطلاب والزوار في أرجاء الدار .هناك ،كانت تسرد الحكايات ؛حكايات الرعب والخوف الذي تلا إعلان المسيرة الخضراء حكايات سافرت به الى الماضي .الى صباه في قريته "إيش" الى ما عاناه أهله هناك مع عسكر الجيران. حكايات رجال القرية وهم يخرجون ليلا فرار الى فجيج خوفا من بطش العسكر ."منذ ذلك اليوم ""يروي محمداتي حزينا ""منذ ذلك

اليوم بدأت المضايقات من الشرطة الجزائرية تزداد باضطراد .كنا نسمع كلاما نابيا يجمع بين السب والفحش في القول. لاحقونا في كل مكان """"يردف محمداتي وكله ثقة في ما يسرد ."" كانوا يخرجوننا من البيوت دفعا في سياراتهم بكل ما يملكون من قوة .يسوقوننا كالمواشي الى أماكن التجمع استعدادا لإلقائنا خلف الحدود .حين حان الموعد ،اقتادونا جماعات بلا رحمة .انعدمت فيهم كل معاني الإنسانية " يضيف متأسفا.لم يسمحوا لنا بجمع أغراضنا .ساقونا بوحشية """"كان تيمح يستمع مصغيا لهذه الروايات العجيبة التي لم تكن قط غريبة عليه رغم كونه لم يشهد قط مثل هذه الصور الفظيعة التي نقلها موحميداتي وقد شهد تفاصيلها جسدا وروحا..... .

نام الطلاب نزلاء الداخلية جنبا الى جنب مع هؤلاء القادمين من وراء الحدود الوهمية . في الصباح ، وهو يغسل وجهه ويسرح شعره أمام مرآة الحمام ،وقفت خلفه طفلة كالقمر في تمامه .زهرة تفوح عطر براءة وجمال نفس .التفت اليها

فخاطبته ""من أي مدينة أنت ؟"""نظر اليها متأملا ذلك الوجه الاخاذ البريء ،لم يجد ما يقول عدا أن يسالها في استحياء «" هل تتحدثين الي ؟أنا من مدينة بوعرفة""" ثم صمت . .تعلق الطفل تيمح بتلك الفتاة وتعلقت به .صارا يلتقيان في حوش الدار .يتزين لها وتتزن له .تحكي له ما شاهدت وما مر بها في تلك البلاد. في غفلة منه وهو في الثانوية ،كان يخشى أن تسافر تلك الفتاة التي لم يعرف اسمها قط الى وجهة كان آنذاك لا يعلمها الا على الخريطة.أن تسافر الى مكناس كما اخبرته بذلك . كان سيبكي لأيام فقدها وهما لم يكونا سوى طفلين بريئين جمعهما أنين الفراق .أنين القهر .جمعتهما لحظة التفاتة من الزمن شاء لها الله اتعالى أن تألف بين قلبيهما المكسورين .

في مدينة فجيج ،كان ذلك الحدث عظيما والمدينة تتاخم الحدود المصطنعة. كان أهل فجيج ذوي خبرة بعقلية حكام الجزائر ,فحرب الرمال لم تكن بعيدة زمنيا وهم من تصدوا بأرواحهم وبكل ما يملكون لغطرسة الجزائريين جنبا الى جنب مع

القوات المسلحة الملكية .كان تيمح يعلم خبثهم أيضا .كان يكرههم .فهم من تسببوا في قتل أخيه صبيا .وهم من أرادوا اقتياد عمه الى مراكز التعذيب على الحدود كما سمع ذلك عن جدته. تأهب الجميع ساعين الى التخفيف عن المهجرين .فتحت أبواب الدور في القصور المترامية .أعد الأهالي أطباق الكسكس والمرق وقدموا التمر والحليب .أخرجوا أفخر الأفرشة يذرؤون عن إخوانهن البرد القارس والفصل شتاء .غصت المدينة بالزوار الجدد يجوبون الشارع الرئيسي .كان الناس كرماء اذ استقبلوهم وآووا واطعموا وأمّنوهم على أنفسهم وأعراضهم ومتاعهم .

في الداخلية ،عادت الأمور الى رتابتها وكأن هؤلاء كانوا يقطنون بها منذ أمد بعيد .لم تمض ثلاث ليال الا وكان الجميع يدا واحدة وكلمة واحدة .ألفوا الدار والفتهم .توردت خدودهم بعد أن شعروا بالأمان وأكلوا وشربوا من خيرات الوطن .كانت الحدود تبدو من بعيد سوداء تعبرها عرباء أكثر حلكة بإجرامها .كانت الحدود تعني بالنسبة لتيمح وهو يقف بين هؤلاء الأبرياء

المطرودين الذين انتزع منهم كل متاع،كانت تعني له الخوف ،تعني الحرب ، تعني العنجهية .كان ينظر اليها وينظر الى الوادي الذي أصبح ممنوعا عليه وعلى أصحابه الأصليين متحسرا .كانت حكايات المهجرين في ليالي الداخلية كافية لتطير بخياله الى أبعد حدود الوحشية والترهيب اللذين لقيهما هؤلاء المساكين وهم يساقون كالدواب بكل قسوة ،تقذف بهم آلة عسكر الجزائر غصبا صوب الحدود .استبدت حكاية يوم العيد بعقله وخياله .كان فقط يستمع ويستمع .انتابه شعور بالكراهية تجاه هؤلاء المجرمين وهم يعذبون شابا فقد عقله .دفعوا به عبر الحدود وهو لا يدري ما الذي يجري ..حتما عاملوه بقسوة. ركلوه وصفعوه ومن يرافقه ينظرون بلا حول ولا قوة .كان هناك في قاعة الاطعام ؛يصرخ ،يقذف بكل شيء في الهواء ،يرمي بالكراسي والطاولات ،يكسرها.كان رجال الشرطة يسحبونه بين حين وحين يسمحون بتناول وجبة الغذاء للنزلاء وزوار الدار ، ثم يعيدونه قبل أن يغيب فجأة عن الانظار

وعن تلك القاعة ."""""اخذوه الى وجدة ،الى الطبيب الكبير """""يقول أحد النزلاء معقبا .بعد أيام من الألفة والسمر والحكايات المشوقة ،حان وقت الرحيل .حين عاد تيمح من الثانوية ظهرا ،لم يجد موحميداتي ولا تلك الطفلة الجميلة ولا العشرات من المهجرين ,أصبحت الدار خلاء بعد عمار .دخل قاعة الاطعام فوجد صحنه المألوف قد عاد اليه .حزن كثيرا أمام ما وجد."""""لقد رحلوا الى بوعرفة """""يخبره أحد كبار نزلاء الداخلية """""لقد اعدوا لهم بيوتا يسكنون بها .لن يعودوا ثانية الى الجزائر """""""اصبحت العودة الى الجزائر بالنسبة لهؤلاء ضربا من الماضي .انطلق الاهالي الى اعمالهم وقد أدوا واجبا عليهم أملته وطنيتهم وسمو اخلاقهم .ما انقطع السمر في الداخلية. سمر حديث محنة رجال ونساء وأطفال عبروا الحدود خائفين مطرودين لكنهم عائدون حتما الى حضن الوطن الآمن. وهم جالسون على مقاعدهم داخل حجرة الدرس في الطابق العلوي بثانوية سيدي عبدالجبار بفجيج والمسيرة تمضي قدما نحو تحقيق اهدافها

،كانت الحصة حصة الرياضيات .وقف الاستاذ هناك ببذلته الانيقة ذات اللون الازرق الفاتح ،كان يستعد لشرح درس في هذه المادة والطلاب قبالته يستمعون ويتابعون كل خطوة يخطوها امام السبورة السوداء الخشبية التي فرغت الا من تاريخ ذلك اليوم. بينا هم كذلك وعقولهم تتلاطم فيها الافكار بحثا عن الفهم أو فك رموز المعادلة التي طرحها الاستاذ ،اذا بالفصل يهتز جدرانا ونوافذ من شدة صوت قادم من هناك ،من السماء .هرع الجميع واقفين يلتمسون معرفة مصدر ذلك الدوي المخيف ،وقد هموا بالمغادرة لولا أن الأستاذ بادرهم يقول :"لا تخافوا ،أنتم رجال ،لا ترهبنكم اعتداءاتهم ""من كان يقصد الأستاذ بكلمة هم ؟من خلال النافذة ،كانت الطائرة الحربية الجزائرية تبتعد سوداء صغيرة بمنقارها الطويل .عاد الهدوء الى الفصل واستمر الدرس بكل الجد الذي تطلبه الموقف .ظلت الطائرات الحربية الجزائرية تزور سماء المدينة من حين لآخر حبا في استفزاز السكان وترهيبهم .لم يكن الحديث على الطريق

الى الداخلية سوى عن هذا الاعتداء الجديد .في قاعة الاكل ،ظل النزلاء يذكرون الحادث بقلق كبير .حتى قبل منامهم ،وهم على الاسرة ليلا ،بات دخول الطائرة الى المدينة ومرورها فوق الثانوية حديث السمر لديهم .لم تعد حكايات """"لونجا""""" وغيرها من حكايات الاساطير تملأ حلقات سهرهم لأيام وليال . لقد تأكد لهم أن الجزائر تعد العدة للحرب .لقتلهم وكل سكان المدينة .عاد المتطوعون ظافرين ,وعادت الصحراء الى الوطن .وهو يقف عصرا قبالة محطة ناقلة زناقة وقد علتها بناية هي عبارة عن فندق قديم ،نظر الى هناك ، الى جهة الحدود ،ظهرت طائرات الهيليكوبتر المغربية تطير كالكواسر الشرسة . تطير كنسور متربصة .ها هي تجوب الحدود ذهابا وإيابا .تعانقها الأشعة الذهبة لشمس الربيع الفتانة .تبدو له من هناك بمراوحها الدوارة متوعدة كل عدو .لم يعد للطائرات الجزائرية بعدها حس ولا خبر .لم تحلق قط فوق سماء فجيج .كانت نهاية حلم بدأ فاشلا ،حلم التوسع

على حساب أراض مغربية تقف صامدة
كالطود العظيم